

القاهرة، وعرف الشيخ منه ذلك فأكبره، وازداد عنه رُضاً وبه ثقة وإليه اطمئناناً، ولكنه قال له ذات يوم: إنك تحفظ ما تسمع من القرآن والحديث، وإنِّي أخشى عليك أن تُعيد ما تحفظ فتخطئ فيه، فالخير ألا تطمئن إلى حفظك حتى تُعيد ما حفظت على الذين يَعُون القرآن ويحسنون العلم؛ ذلك أحرى أن يعصمك من خطأ قد تضطر إليه، ولكنِّي لا آمن عليك عواقبه، هنالك لجأ الحاج مسعود إلى شيخ من حفاظ القرآن، فتلا عليه كتاب الله كله مرة ومرة، حتى استيقن أنه حافظ مجود، ثم لم يكن يسمع من الشيخ حديثاً يرويه عن النبي حتى ينتظر بالشيخ ساعة يخلو فيها إليه، فإذا أمكنته الفرصة قال للشيخ وعلى ثغره ابتسامة تُشرق عن مثل اللؤلؤ، وفي عينيه دموع تترقرق ولا تكاد تنهل: ألسنت قد حدثتنا بكذا وكذا عن رسول الله ﷺ؟ فإذا قال الشيخ: بلى. قال الحاج مسعود: أوثقُ أنت بأني قد وعيت عنك؟ فإذا قال الشيخ: نعم. قال الحاج مسعود: أفأستطيع أن أتحدث به إلى الناس؟ فإذا قال الشيخ: نعم. قال الحاج مسعود: ومع ذلك فلن أفعل إلا مضطراً؛ فما أنا بالمعلم، وما ينبغي إلي أن أكونه، وإنما أنا المتعلم، والمتعلم دائماً.

وكان الحاج مسعود قد ورث عن أبيه تجارة واسعة ضخمة في غلات الأرض، فلم تكن أرض الإقليم تُنبت حبة إلا صارت من الحقل إلى الحاج مسعود، ثُمَّ تفرقت بعد ذلك من مخازن الحاج مسعود إلى من صيَّرها الله له رزقاً من أهل المدينة أو من أهل الإقليم، بل من أهل الأقاليم البعيدة. ولم يكن أحدٌ يمرُّ بمخازن الحاج مسعود في ساعة من النهار إلا رأى أمامها جماعات لا تكاد تُحصى من الحُمُر والإبل، هذه يُوضع عنها ما تحمل قد أقبلت به من المتاجر والحقول، وهذه تُوقر بالأحمال لتنقلها إلى المتاجر والدور ولتنقلها إلى السفن بوجه خاص، فقد كان للحاج مسعود ما يشبه أن يكون أسطولاً نهرياً، وكانت سفنه الملوكة له والتي كان يستأجرها من غيره ما تزال مصعدة في النيل نحو الصعيد أو هابطة فيه نحو القاهرة، وكان الحاج مسعود مصدر رزق لخلق كثير من أهل المدينة والقرى المجاورة، فما أكثر الذين كانوا يعملون عنده بأيديهم كيلاً ووزناً وتعبئةً وسعيًا بالتجارة هنا وهناك، وما أكثر الذين كانوا يأجرونه من حُمُر وإبل لينقلوا عنه وينقلوا إليه، وكان الناس لا يرون قطاراً من الإبل يحدو به حاد، أو قافلة من الحُمُر يسوقها سائق وهو يتغنّى بهذا اللفظ القروي الظريف «يا دواب يا دواب» إلا قالوا: هذه إبل الحاج مسعود أو هذه حُمُر الحاج مسعود.

وكان الحاج مسعود يسكن داره في طرف من أطراف المدينة يُوشك أن يكون قرية من قُرَاها، بل توشك الدار نفسها أن تكون قرية صغيرة من القُرى، وكانت هذه الدار قد